بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، والصلاة والسلام على رسوله المبعوث رحمة للعالَمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

(أما بعد)

فقد عُني الإسلام بالمجتمع عنايته بالفرد ، فكلٌّ منهما يتأثَّر بالآخر ويؤثِّر فيه . وهل المجتمع إلا مجموعة من الأفراد ربطت بينهم روابط معيَّنة؟ فكان صلاح الفرد لازمًا لصلاح المجتمع ، فالفرد أشبه باللبنة في البنيان ، ولا صلاح للبنيان إذا كانت لبناته ضعيفة .

كما لا صلاح للفرد إلا في مجتمع يساعده على النمو السليم ، والتكيُّف الصحيح ، والسلوك القويم . فالمجتمع هو التربة التي تنبت فيها بذرة الفرد ، وتنمو وتترعرع في مناخها ، والانتفاع بسمائها وهوائها وشمسها . وما كانت الهجرة النبوية إلى المدينة ، إلا سعيًا إلى مجتمع مستقلٍّ ، تتجسَّد فيه عقائد الإسلام وقِيَمه ، وشعائره وشرائعه .

وقد لمسنا في عصرنا محنة الفرد المسلم في المجتمعات التي لا تلتزم بالإسلام منهاجًا لحياتها ، ناهيك بالمجتمعات التي تعادي شريعته ، وتطارد دعوته ، وكيف يعيش هذا الفرد في توتُّر وقلق وحَيرة ، نتيجة لما يحسُّ به من تناقض صارخ ، بين ما يؤمن به من أوامر دينه ونواهيه من جهة ، وما يعايشه ويضغط عليه من أفكار المجتمع ومشاعره وتقاليده وأنظمته وقوانينه ، التي يراها مخالفة لتوجيهات عقيدته ، وأحكام شريعته ، ومواريث ثقافته ، من جهة أخرى .

الإنسان ـ كما قال القدماء ـ مدنيٌّ بطبعه . وكما قال المُحْدَثون : حيوان اجتماعي . أي أنه لا يستطيع أن يعيش وحده ، بل لا بدَّ أن يتعاون مع غيره ، حتى تستقيم حياته ، وتتحقَّق مطالبه ، ويستمرَّ نوعه . وقد قال الشاعر العربي :

الناس للناس منْ بدو وحاضرة ... بعض لبعض ـ وإن لم يشعروا ـ خدمُ!

والإسلام لا يتصوَّر الإنسان وحده ، إنما يتصوَّره في مجتمع ، ولهذا توجهت التكاليف إليه بصيغة الجماعة : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ﴾ ، ولم يجئ في القرآن : (يا أيها المؤمن) . وذلك أن تكاليف الإسلام تحتاج إلى التكاتف والتضامن في حملها والقيام بأعبائها ، يستوي في ذلك العبادات والمعاملات .

فإذا نظرنا إلى فريضة كالصلاة ، وجدنا أنها لا يمكن أن تقام كما يريد الإسلام ، إلا بمسجد يتعاون الجميع على بنائه ، ومؤذن يُعْلم الناس بمواقيت الصلاة ، وإمام يؤُمُّهم ، وخطيب يخطبهم ، ومعلِّم يعلِّمهم ، وهذا كلُّه لا يقوم به الفرد ، وإنما ينظِّمه المجتمع .

وقد جعل القرآن أول أعمال الدولة المسلمة إذا مُكِّن لها في الأرض : أن تقيم الصلاة . كما قال تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ** . . . ﴾ (الحج: ٤١).

ومثل ذلك يقال في فريضة الصوم ، وضرورة ترتيب أمور الحياة في رمضان ترتيبًا يُعين على الصيام والقيام والسحور وغيرها .

ومن باب أولى : الزكاة ، فالأصل فيها أنها تنظيم اجتماعي تُشرف عليه الدولة ، بواسطة (العاملين عليها) ، الذين نصَّ عليهم القرآن .

وكذلك كل شعائر الإسلام وأركانه .

أما الأخلاق والمعاملات فلا يُتصوَّر أن تقوم ـ كما ينشدها الإسلام ـ إلا في ظلال مجتمع ملتزم بالإسلام ، يتعبَّد لله بإقامة حياته على أساس الإسلام .

وقد علَّم الإسلامُ المسلمَ أن يقول إذا ناجى ربَّه في صلاته : ﴿ **إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ** ﴾ (الفاتحة:٥) ، فهو يتكلَّم بلسان الجماعة وإن كان وحده ،

وكذلك إذا دعا ربه دعاه بصيغة الجمع : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة:٦) ، فالجماعة حيَّة في وجدانه ، حاضرة على لسانه .

والمجتمع المسلم مجتمع متميِّز عن سائر المجتمعات ، بمكوِّناته وخصائصه ، فهو مجتمع ربانيٌّ ، إنسانيٌّ ، أخلاقيٌّ ، متوازن . والمسلمون مُطالَبون بإقامة هذا المجتمع ، حتى يمكِّنوا فيه لدينهم ، ويجسِّدوا فيه شخصيَّتهم ، ويحيَوْا في ظلِّه حياة إسلامية متكاملة : حياة توجِّهها العقيدة الإسلامية ، وتزكِّيها العبادات الإسلامية ، وتقودها المفاهيم الإسلامية ، وتحرِّكها المشاعر الإسلامية ، وتضبطها الأخلاق الإسلامية ، وتجمِّلها الآداب الإسلامية ، وتهيمن عليها القيم الإسلامية ، وتحكمها التشريعات الإسلامية ، وتوجِّه اقتصادها وفنونها وسياستها : التعاليمُ الإسلامية .

فليس المجتمع المسلم ، كما يتصوَّره أو يصوِّره الكثيرون هو ـ فقط ـ الذي يطبِّق الشريعة الإسلامية في جانبها القانوني ، وخصوصًا جانب الحدود والعقوبات ، فهذا تصوُّر وتصوير قاصر ، بل ظالم لهذا المجتمع ، واختصار لكلِّ مقوِّماته المتعدِّدة في مقوِّم واحد : هو التشريع . وفي جانب واحد من التشريع : هو التشريع الجزائي ، أو الجنائي .

لهذا كان من المهم هنا : إلقاء الضوء على المكوِّنات أو الملامح الأساسية لهذا المجتمع الذي ننشده ، والذي قامت حركات وجماعات إسلامية في شتَّى أنحاء العالم العربي والإسلامي تدعو إليه ، ليحلَّ محل المجتمعات الحاضرة ، التي اختلط فيها الإسلام بالجاهلية ، سواء أكانت جاهلية وافدة ، مما غزانا به الاستعمار الغربي بشقيِّه : الرأسمالي والاشتراكي . أم جاهلية موروثة ، من رواسب عصور التخلُّف ، التي ساء فيها فَهم المسلمين لدينهم ، كما ساء تطبيقهم له ، حكَّامًا ومحكومين .

وقد صدر لي كتاب منذ سنين ، هو : (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي) ، وهو في الحقيقة جزء من هذا الكتاب .

كما تركتُ موضوعًا يتعلَّق بالدولة ونظام الحكم ، خشية من طول الكتاب على القارئ . وربَّما أُصدره في رسالة مستقلَّة ، أو أُلحقه به في طبعة أخرى .

وعسى أن يكون في هذه الفصول ما يساعد على كشف اللثام عن معالم هذا المجتمع ، الذي ترنو إليه الأبصار ، وتشرئب نحوه الأعناق ، وتتعلَّق به القلوب .

وعسى أن يزيدنا ذلك إصرارًا على السعي إليه ، والعمل على تحقيقه في الواقع ، كلَّما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، في أيِّ وطن ـ مهما صغرت رُقعته ـ من دار الإسلام . فيعلن ولاءه الكامل للإسلام ، عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، ويبني حياته كلَّها : المادية والمعنوية ، وسياسته كلَّها : الداخلية والخارجية على الإسلام .

ومن ناحية أخرى نقيس المجتمعات القائمة اليوم ، والتي تنتسب إلى الإسلام ، لأن سكَّانها مسلمون ، أو لأن دستورها يُعلن أن دينها الإسلام ، أو أن الشريعة هي المصدر الرئيسي ، أو المصدر الوحيد للقوانين : نقيسها إلى هذا المجتمع في صورته المثالية المنشودة ، لنعرف مدى قربها أو بعدها منه .

فما أكثر الذين يتمسَّحون بالإسلام ، وهم عنه صادُّون ، أو يتمسَّكون بشكليَّات منه ، وهم عن رُوحه معرضون ، أو يؤمنون ببعض كتابه ، وهم بالبعض الآخر كافرون ، أو يحتفلون بأعياده ، وهم لأعدائه موالون ، ولدعاته معادون ، ولشريعته معارضون!

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الممتحنة: ٤، ٥).

الدوحة في ذي الحجة ١٤١٣هـ

الموافق يونيو (حزيران) ١٩٩٣م

يوسف القرضاوي